

## الفصل السادس

### فى مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات ليس إلا بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف

هذه الدعوة مركبة من ثلاثة أمور الأمر الأول أن العلوم كانت حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع . الأمر الثانى أن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة وزال منها معنى الاحتراف والصنعة . الأمر الثالث كونها كمالات وطاعات وبيان ذلك يفتقر إلى مقدمتين - المقدمة الأولى أن هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع وأحكامها باقية بقاء الدهر ثم إن الأحكام كلها متلقاة من الله تعالى ولا مدخل للعقل فى إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما ، ولذلك قيل فى حد الحكم الشرعى خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير فقيل خطاب الله لما أن السنة والإجماع والقياس ترجع إليه بالآخرة . والكتاب والسنة والحكم الشرعى مفتقر إلى العلوم بأسرها - وبيانه أنه بالنظر إلى المفرد الذى يستدل به وصحته فى حالة إفراده يفتقر إلى علم الصرف وأن النظر فى صحة التركيب يفتقر إلى علم النحو وفى تطبيق اللفظ على مدلوله يفتقر إلى علم اللغة وفى إظهاره وإضماره والتفاته وتقديمه وتأخيرته ونحوها مما يرجع إلى مطابقة اللفظ لمقتضى الحال إلى علم المعانى وفى حقيقته ومجازه وكنايته واستعارته ونحوها مما يرجع إلى إيراد العلمين إلى علم البديع وبالنظر فى خاصه وعامه ومطلقه ومقيده ومجمله ونحو ذلك إلى المعنى الواحد فى طرق مختلفة فى وضوح الدلالة إلى علم البيان وبالنظر إلى توابع هذين طائفة من علم أصول الفقه وفى مواقع القرآن إلى أسباب النزول وفى استيضاح معانيه إلى علم التفسير وفى نزوله على حروف متعددة إلى علم القراءات وفى الاستدلال به وترتيب الأدلة إلى علم المنطق والجدل وآداب البحث وفى

الأحكام المستفادة منه وبواسطته إلى الفقه وفي استنباط الفقه إلى أصول الفقه - وإن النظر في السنة يستلزم علم رواية السنة وحفظها وعلم الحديث والناسخ والمنسوخ وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم ومشتبه أنسابهم وجرحهم وتعديلهم ووفاتهم والأخبار والقصص - وأن النظر في الشارع يفتقر إلى علم الكلام ثم إن العلوم بعضها مربوط ببعض ومتعلق به إما على سبيل الاستلزام أو على سبيل الاستمداد وهذه العلوم المذكورة تستلزم جملة من علوم الحكماء والأوائل ولو بواسطة أو وسائط كاستلزام الفقه بواسطة الفرائض والإقرارات المجهولة علم الحساب وهو الأرتماطيقى وعلم الجبر والمقابلة وبواسطة اختلاف أحكام الوصية وما في معناها بالمرض المخوف وغيره وإباحة التيمم بالمرض ونحوه إلى علم الطب وكاستلزام علم الكلام للطبيعة والرياضة والمنطق وكاستلزام تعيين معرفة القبلة على كل واحد في رأى الرافعى أن على مرید السفر في رأى النووى وهو من الفقه معرفة طائفة من الهيئة وكذلك معرفة دخول الوقت واستلزام الاستشهاد بالشعر في النحو والتفسير علم العروض وعلى هذا القياس قس تجد العلوم مرتبطة بعضها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد - المقدمة الثانية أن الحفاظ للقرآن بكماله في عصره ﷺ معاذ بن جبل وأبو زيد سعيد بن عمر الأنصارى وأبو الدرداء عويمر وزيد بن ثابت وفي قول وعثمان بن عفان وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصارى . وأصحاب الإفتاء في عصره ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن ابن عوف وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري . ثم انتهت أصول العلم إلى عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس فأخذ عن ابن مسعود ستة علقمة والأسود وعبيدة والحريث بن قيس ومسروق وعمرو ابن شرحبيل . وأخذ عن زيد بن ثابت أحد عشر رجلا ممن كان يتبع رأيه

ويقتدى بقوله قيصة بن ذؤيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن الزبير وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وسعيد بن المسيب وأبان بن عثمان وسليمان بن يسار - وأخذ عن ابن عباس ستة سعيد بن جبير وعطاء ابن أبي رباح وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وطاووس هكذا رواه أبو بكر الخطيب بإسناده عن علي المدني وروى الحاكم أبو عبد الله عن أبي العباس الأصم عن العباس لدورى قال انتهى علم الصحابة إلى ستة عمر وعلى وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت انتهى - وانتهت أصول الرواية إلى ستة أبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وأبي سعيد الخدرى وعائشة. وانتهت أصول الأخبار والقصص إلى ستة عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وهب بن منبه وطاووس اليمانى ومحمد بن إسحق ومحمد بن عمر الواقدى - وانتهت صناعة التفسير إلى ستة عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك والسدى هكذا ذكر هذا كله جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزى فى كتابه المسمى تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير ثم صار الأمر من بعده ﷺ إلى أبى بكر الصديق واسمه بد الله بن عثمان بوبع له فى اليوم الذى توفى فيه رسول الله ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة. ثم بوبع له البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وتوفى لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال. ثم استخلف عمر بن الخطاب يوم وفاة أبى بكر بنصه عليه ثم قتل لأربع بقين ن ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. ثم استخلف عثمان بن عفان أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثمان عشر خلت من ذى الحجة سنة خمس

وثلاثين، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأياماً. ثم استخلف على بن أبي طالب وقتل في رمضان سنة أربعين في يوم الجمعة وكانت خلافته أربع سنين وتسع أشهر وأياماً، ثم بايع الناس الحسن بن علي يوم موته فوليتها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً، ويقال أربعة أشهر، ثم كره سفك الدماء فتخلى عن الأمر لمعاوية وانخلع وبايعه في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين فانتقل الأمر إلى بنى أمية وخلص لهم ثنتين وثمانين سنة ألف شهر وعدتهم أربعة عشر رجلاً: أولهم معاوية وخلافته سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر وآخرهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ومدة ولايته نحو من ثمان سنين، وبعد معاوية يزيد بن معاوية وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرين، ثم بويع لابنه معاوية بن يزيد فمكث أربعين ليلة ثم مات وقيل خلع نفسه لصعوبة الأمر عليه، ثم بويع لعبد الله بن الزبير بمكة لسبع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعته ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام وذلك في المنتصف من ذي القعدة سنة أربع وستين ثم مات في رمضان سنة ٦٥، فكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً، فقام مقامه عبد الملك ابنه، وجهاز العساكر مع الحجاج بن يوسف لقتال ابن الزبير وقتل ابن الزبير في المسجد الحرام بمكة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر. ثم استخلف أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفى سنة ٩٩ فكانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر. ثم استخلف عمر بن عبد العزيز وكانت خلافته ستين وخمسة أشهر وخمسة أيام. ثم استخلف يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته أربع سنين وشهراً. ثم استخلف أخاه هشام بن عبد الملك وكانت ولايته تسعة عشر عاماً وسبعة أشهر وعشرة أيام. ثم استخلف

الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكانت خلافته سنة وشهرين . ثم استخلف يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ثم بويج أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك ، ثم مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم وقتل سنة ١٣٢ هجرية . ثم انتقل الأمر إلى بنى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ فتولى أبو العباس السفاح واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في ربيع الأول وقيل الآخرة سنة ١٣٢ وتوفى في ذى الحجة سنة ١٣٦ فكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر . ثم تولى بعده أخوه المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد وكان أكبر سنًا منه وحج فتوفى لسبع خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ ، فكانت ولايته اثنين وعشرين سنة إلا شهرًا . ثم ولى المهدي بن محمد بن عبد الله بمكة وتوفى لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ وكانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يومًا . ثم ولى ابنه الهادي موسى بن محمد وكانت خلافته أربعة عشر شهرًا وإحدى وعشرين يومًا . ثم ولى بعده أخوه الرشيد أبو جعفر هارون بن محمد فكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرًا وستة عشر يومًا . ثم ولى بعده ابنه الأمين أبو عبد الله محمد بن هارون وقتل في المحرم سنة ١٩٨ وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأربعة وعشرين يومًا . ثم ولى أخوه المأمون عبد الله بن هارون في المحرم ومات ببلاد الروم لثمان خلون من رجب سنة ٢١٨ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا . ثم تابع العباسيون واحدًا واحدًا إلى أن ختموا بالمستعصم أبي أحمد عبد الله ابن المنتصر بالله أبي جعفر منصور وكانت عدة خلفاء بنى العباس سبعة وثلاثين خليفة وجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ولم تكن أيدي بنى العباس حاکمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار فقد خرج عن بنى العباس بلاد المغرب وإنما ذكرت هذه المقدمة بطولها لتعرف ترتيب الدول وسيتضح لك ذلك بإذن الله تعالى - إذا

تقرر ذلك فاعلم أن العلوم الإسلامية لم تكن مدونة ولكن اقتضتها الشريعة اقتضاء واستلزمها لزوماً وإفاضتها إفاضة كما تقرر في المقدمة الأولى وتلقت الصحابة أصولها من حضرته ﷺ ومشاهدتهم الوحي وتفقههم بأسباب النزول وما أفاضته عليهم أنوار النبوة ثم ثابروا على الحق وتساءلوا وتناظروا واجتهدوا وتراجعوا عند اختلافهم إلى من عنده مزيد علم بالمختلف فيه وتواصوا وتعاونوا وعلى إمضاء الشريعة وتشيعها وإلزام الناس بها وإكرام حملتها وملوك الناس علماءهم والعلماء الكبار قليلون كما مر في المقدمة الثانية على ما هو العادة في الأمور المتبدأة كيف تكون في مبدئها وأولها قليلة كما مر في المقدمة الثانية على ما هو العادة في الأمور المتبدأة كيف تكون في مبدئها وأولها قليلة وما ظنك بالشئ المحتاج إليه مع قلته ويلزم من ذلك كله وفور الداعية في تحصيل العلم ومزيد الاعتناء به والرغبة فيه ولذلك كانت الفضائل والكمالات والعلوم تأخذ في الازدياد والنمو لنفاق أصحابها ولبقاء أنوار النبوة غضة طرية بين الناس وكلما ازدادت الشريعة تمهيداً ونشراً ازدادت الصحابة وحاشاهم من تعلق همهم بالدنيا سيادة ويسراً فلقد كثر المال في خلافة عثمان ابن عفان كثرة بالغة لم يكثر قبلها في خلافة من تقدمه حتى جاء نصيب الفارس في غزوة إفريقية ثلاثة آلاف دينار أو عشرين ألف دينار فأطلقها كلها عثمان رضى الله عنه في يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان. ثم صارت الخلافة من الخلفاء الأربعة والحسن رضى الله عنهم إلى الأمويين فالعباسيين على ما تقدم في المقدمة الثانية وهم ما بين صحابى وتابعى ومدل بنسبته إلى النبى ﷺ والشريعة التى العلوم خدمتها شريعة قريبهم وصاحبهم وسيادتهم وفخرهم واستيلائهم على الممالك به ﷺ وبشريعته المستلزمة للعلوم على ما مر في المقدمة الأولى فكيف لا تأخذ العلوم فى الانتشار والملوك والأمراء

والأعيان والقضاء والوزراء هم أهل العلم والفضل والعقل أو المدحجين الكامل وشهرتهم وذكر أسمائهم في غالب خطب كتب الأقدمين تغني عن عدم بالأسماء فقل أن يخلو كتاب من كتب العلماء الأقدمين خصوصاً في العلوم العقلية والأدبية إلا ويذكر فيه أن الباعث على تدوينه وزير أو قاض أو أمير أو من في معناتهم ويلزم من ذلك قوة داعية التعلم وتوفير الإرادة له لما أن المجانسة واتحاد المقاصد والتعاون على مقصد واحد واستمداد العلماء بعضهم من بعض وزيادة العلم ورسوخه بالبحث فيه والمذاكرة له كل ذلك مقتضى للألفة والمحبة والاختلاط والعناية وألفة الملوك والأعيان ومحبتهم والاختلاط بهم يقتضى تأليفهم ومن يحبونه إلى مقاصده ومآربه ولذلك بنيت المدارس بألوف الدنانير لجنس العلماء أو لواحد منهم بالقصد الأول ولجنسهم بالقصد الثاني واتسع الحال بالعلماء أنفسهم حتى بنوا هم لبنى نوعهم مدارس كثيرة وكتب التاريخ طافحة بهذا. ولذلك أيضاً بذلت الألفوف في الإرشاد إلى تصحيح كلمة أو مساعدة على مقصد علمي كحكاية النضر بن شميل مع المأمون وأنه أمر له بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل على أن أرشده إلى أن السداد الذي بمعنى البغة وسد الثلثة بكسر السين لا بفتحها، وأن الفضل زاده من عند نفسه لذلك ثلاثين ألف درهم فتم له ثمانون ألف درهم. وكحكاية أبي عثمان المازني وإحضار الواثق إياه من البصرة ليسأله عن نصب رجل أو رفعه في قول العرجي:

أظلم أن مصابكم رجلاً      أهدى السلام تحية ظلم

وأمره على توجيهه إياه بألف دينار. وكحكاية دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزي<sup>(١)</sup> الفقيه المعدل المحدث الرئيس صاحب الأموال الجزيلة

(١) نسبة إلى سجستان على غير قياس.

التي أنفق أكثرها في العلم وأهله المتوفى عن ثلثمائة ألف دينار سنة ٣٥١، حيث بعث بمسندة إلى ابن عقدة لينظر فيه وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً وكحكاية عبد الله بن طاهر حيث رتب للقاسم بن سلام أبي عبيد في كل شهر عشرة آلاف درهم لما وضع كتابه في غريب الحديث وقال له أن عقلا يعين صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق أن لا يحوج لطلب المعاش. وكحكاية على بن محمد بن الفرات من أنه كان ينفق على خمسة آلاف من العلماء والعباد ويجرى عليهم نفقات كل شهر وكغير ذلك من أخبار المدح والكلمات العلمية مما يغنى تواتره المعنوي عن الإطالة به. ولذلك أيضاً كان التقريب والتباعد والضعف والشرف على حسب الاستعداد والاستحقاق وذلك كله يستلزم كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرقة من الحرف لما أن الناس كانوا يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم إلى الحاكاة والباعة والصناع وباقي الحرف أضعافاً مضاعفة. وكان العلماء يسترزقون بعلمهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم فوق استرزاق الحاكاة والخاطئة أضعافاً مضاعفة فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصنفت الكتب وهذبت ورتبت وبسطت واختصرت واستبحر العلم استبحاراً وذخرت أمواجه وأخذ إلى أبعد مسافة من أقطار الأرض شرقاً وغرباً حتى أن علوم الشريعة كلها من التفسير والنحو والأصول والمعاني والحديث أكثر أصحابها العجم على بعد قطره مع أن صاحب الشريعة عربي وكتابه عربي والمتلقون عنه وهم الصحابة عرب - ولذلك سبب أذكره استطراداً وهو أن الشريعة لما استلزمت العلم على ما مر وكان العلماء هم الملوك والأعيان وكان نفاق العلماء والاحتياج إليهم فوق نفاق الخياط والحداد والحائك والاحتياج إليه واسترزاق العلماء بعلمهم فوق استرزاق هؤلاء بحرفتهم صار العلم حرقة من الحرف على ما تقدم وقاعدة الحرف أن موجوديتها وكثرتها ومهارة أهلها يدور

مع التمدن والحضارة فكلما ازداد القطر تمدناً وحضارة ازدادت الحرف إحصاءاً ومهارة فلذلك لا تجد في القرى من المصنوعات ما يوجد في المدن ولا في صغير المدن ما يوجد في كبيرها لما أن رواج الحرف ونفاقها هو سر موجوديتها وأحكامها لأن الناس لا يضعون سلعهم حيث لا تقبل أو لا تنفق وكبر المدينة وكثرة أهلها يستلزم النفاق لاحتياج الناس واختلاف أغراضهم وهمهم احتياجاً على البدل والتناوب إلى المصنوعات واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعور والخلو واقتضائه للنفاق لأن توزيع المجموع على المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة . ومملكة فارس والعجم كانت أكثر تمدناً وحضارة فلذلك انتشرت العلوم فيها وأحكمت إحصاءاً بليغاً إلى حد لا يوجد في غيرها لكثرة ناسها وعظم مملكتها . هذا كله في تبين أن العلوم كانت صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف فذلك أن الحرف والدول لها شباب وهم ولها عمر طبيعي كأعمال الحيوانات والأمور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهي كالأمور الحسية وكنا قد قدمنا أن العلوم اقتضتها الشريعة اقتضاء وأن الصدر الأول تشايعوا على إظهار الشريعة ولوازمها وتوابعها فراج العلم والعلماء لذلك ولا شك أن الدول بعد الخلفاء الأربعة وإن كانت فوق عصرنا هذا في الانتظام والسداد أضعافاً مضاعفة لكنها دون عصره ﷺ وبذل لذلك قوله ﷺ : «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» وقوله ﷺ في رواية علي بن الجعد عن حماد عن سعيد بن جمهان<sup>(1)</sup> عن أنس عن النبي ﷺ : «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً» وخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل بدأ هذا

(1) جمهان كعثمان محدث من التابعين اهـ قاموس .

الأمر نبوة ورحمة وكانت خلافة ورحمة وكانت ملكا عضوضاً وكانت عتواً  
 وجبرية وفساداً فى الأمة يستحلون الفروج والخمور والحريز وينصرون على  
 ذلك ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل» وخرجه أبو بكر بن أبى عاصم  
 فى كتاب السنة بنحوه مختصراً. ولسر هذه الأحاديث تجدد فى الدول بعده  
 ﷺ ما لم يكن فى عصره ﷺ واستعجم الملك وتجددت فى أحوال فارس  
 والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحجاب ومضاعفة الحجاب  
 ومن الوزراء والجاويشية والجوندارية وأصناف أمراء ووظائف وأسماء لم تكن  
 فى عصره ﷺ. وحدث تخطى الحدود والتعازير وتشنيع القتل وإيقاعه بغير  
 موجب شرعى وزالت أحوال البداوة من خوف المذمة وشدة الحياء والكرم  
 والتبذل فى المأكل والملبس والمركب ومن اتخذ التواضع خلقاً وحدثت  
 الحوادث وكثرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين الذين يدلون بنسبهم إليه  
 ﷺ ونزلت سيادتهم بشريعتهم المستلزمة لعلوم كما تقدم فخرجت حصاة من  
 مملكة الشرق من أيدي العباسيين فى دولة بنى بويه على يد يحكم وغيره ثم  
 زالت أيديهم عن العراق كله وخرج الحكم عنهم فى أصلاً سنة وشهوراً فى  
 أيام إرسال البساسيرى فى حدود الخمسين والأربعمائة ثم عاد إلى أن أخرجه  
 عنهم مطلقاً واستأصلهم هولاء بن طولى خان بن جنكيز خان وكان الصدر  
 الأول يدبرون أفعالهم على محض الشريعة ثم جاء من بعدهم فأدخلوا فيها  
 بالاستدلال والتمحل جملة من السياسة ثم فعلوا أموراً سياسية وهونوها على  
 الناس بالاعتذار ثم اتسع نطاق السياسة وأدار الملوك أحوالهم على عقولهم  
 وأخذت جنكيز خان الياساق الذى وضعه وجعل الناس يتحاكمون إليه ويطلع  
 إلى جبل ويزعم أنه يوحى إليه به وأكثره مخالف لشرائع الله وكتبه وإنما هو  
 شىء أقرحه من عدن نفسه بعد الستمائة وأوحاه إلى شيطانه وكان يكتب

إيساقه في مجلدين بخط غليظ ويحمل على بعير ويبالغ في تعظيمه وكثرت الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضى طى بساط العلم ويفضى إلى عدم الاحتياج إليه فإن النفوس حكوية من شأنها المحاكاة في الشر ومهما صدر شيء وزال بقى منه أثر في النفوس وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان وهذا كله يستلزم طى بساط العلم وعدم الحاجة إليه لما أن العلوم من لوازم الشريعة وتوابعها كما قرناه وأعدناه غير مرة وإذا ضعف العمل بالملزوم وتوسهل فيه فأولى أن يضعف العمل باللازم ويتساهل فيه ولذلك لم يبق من العلم سوى رسومه ومعاهده كالمدارس القديمة وسوى ما يوجبه ناموس الإسلام من الاعتراف بحقه ظاهراً فقد اتضح عندك خروج العلوم عن كونها مظنة الاستحقاق ومطية الاسترزاق وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تباع كما يباع الفرس والحمار وهو الذى يسمونه نزولاً وإعراضاً ويوصى بها كما يوصى بالقوس والدار وهو الذى يسمونه نزولاً أيضاً وتورث كما تورث الأموال يأخذها الصغار والأطفال . وأنت إذا راجعت أن كثرة الحوادث الخارجة عن الشريعة تحدث في النفس محاكاة وأثراً واستدلالاً وأن الناس على دين مليكهم وهم بزمانهم أشبه منهم بأبائهم وأن الملوك أسواق يحمل إليها ما ينفق فيها وأن الصنائع تدور مع النفاق وجوداً وعدماً وأن وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بإفضاء حرفهم إلى ثمرتها أكثر من وثوق العلماء بإفضاء علمهم إلى ثمرته الدنيوية وأن إهمال الصناعة والاستغناء عنها بغيرها يوجب اضمحلالها وزوالها وما نسب لذلك مما تجده وتشاهده من إهمال المنطق والحكمة بالشام واستعماله بالروم والعجم تحققت أن العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف اللهم إلا

أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها فهو الذى  
عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموقفة وساطع أمره وقبره  
وإحياء معالم العلم شرعه وشعره أبقى الله دولته بقاء الفرقدين وملكه ما بين  
المشرقين .

وأما الأمر الثالث وهو كون العلوم كمالات وطاعات فهو أن الإنسان إنما  
ينفصل عن الحيوان بالنطق وليس المراد به الصوت المنضغط فى المجرى على  
مقاطع الحروف وإلا لكان الأخرس غير إنسان ولا الكلمات المنتظمة وإلا  
لكانت الببغاء والغراب إنساناً وإنما المراد به النفس الناطقة وهى التى تملك  
الطبائع القياسية وغير القياسية وتكون فلسفية وحكمية وتبحث عن العلوم  
النظرية ولها الاستدلال بظواهر الأمور على بواطنها ومعرفة ترتيب الموجودات  
فى الوجود وهذه القوة كمالها وحياتها بالعلم والبيان فتميز الإنسان بما هو  
إنسان بالعلم والبيان وإلا فغير الإنسان من الدواب والسباع أكثر أكلا منه  
وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول عمراً وإنما يتميز عن الدواب  
والحيوان بعلمه وبيانه فإذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر  
الدواب وهى الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم  
كما قال تعالى: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»  
فهؤلاء هم الجهال: «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم» وقال تعالى: «ومثل  
الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً» سواء كان المعنى  
مثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب أو مثل  
الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة  
الإنسانية التى يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان. وأيضاً فالجهل من أعظم  
الأدواء والأمراض وقد سماه الله مرضاً فى قوله تعالى فى حق المنافقين: «فى

قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً» وقوله: «وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون» وفى قوله: «ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض» فإن المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة وكذلك أمراض القلب جميعها من الشهوة والشبهة فإن الكبر مثلاً مركب من تخيل عظمتة وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم إياه ودواء هذه الأمراض كلها العلم ولذلك أكثر الغزالي رحمه الله فى ربيع المهلكات من ذكر دواء العلم فى كل مرض مرض من أمراض القلوب ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور ولذلك أيضاً ترى داء الجهل متلقاً للأموال غالباً قرب شخص يتحيل عليه بحيلة شرعية يجعلها طريقاً إلى أخذ ماله ولولا جهله بالشريعة لما تمت عليه - وأيضاً ما روى عن ابن عمر يرفعه «أفضل العبادة الفقه» وقال عمر رضى الله عنه: «موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه» وما رواه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه عن ابن عمر يرفعه «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة» وما رواه أيضاً من حديث عبد الرحمن ابن عوف يرفعه «يسير الفقه خير من كثير العبادة» قال ابن قيم الجوزية فى مفتاح دار السعادة وفى رفعها نظر وما رواه أيضاً من حديث أنس يرفعه «فقيه عند الله أفضل من ألف عابد» وهو فى الترمذى من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً قال ابن القيم وفى ثبوتهما مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم وما رواه المخلص عن ابن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن مريع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال ابن عبد الرحمن الجعفى عن عطاء بن أبى ميمونة عن أبى هريرة وأبى ذر قالوا: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً» وما رواه الخطيب أيضاً عن أبى الدرداء أنه قال: «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة»

وما رواه أبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول من سلك طريقاً يتبعني فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وأن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأن العلم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً إنما ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر» أما وضع الملائكة أجنحتها فتواضعاً وتوقيراً وإكراماً لما تحمله من ميراث النبوة لأنه طالب لما فيه حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم مناسبة لأن الملائكة يحرصون على منافع البشر يعينونهم على أعدائهم الشياطين ويستغفرون لمسيئتهم قال الطبرانى سمعت أيا يحيى زكريا بن يحيى الساجى قال كنا نمشى فى بعض الأزقة إلى باب بعض المحدثين بالبصرة فأسرعنا المشى وكان معنا رجل تاجر متهم فى دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أحنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فما زال من موضعه حتى حفت رجلاه وسقط وأما استغفار من فى السموات ومن فى الأرض له فإنه لما كان ساعياً فى نجاته العباد جوزى من جنس عمله وجعل ما فى السموات والأرض ساعياً فى نجاته وقيل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وذبحها فاستحق أن يستغفر له بهائم وقوله فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب مطابق لحال القمر والكواكب فإن القمر يضىء الآفاق ويمتد نوره فى أقطار العالم وهذه حال العالم وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه وما قرب منه وهذا حال العابد - ووجه اختيار القمر على الشمس وأن كان الشمس أكثر نوراً وإضاءة أن القمر لما كان نوره مستفاداً من الشمس كان تشبيه العالم الذى

نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس وأيضاً فنور القمر يتفاوت بتفاوت الليالي نقصاناً وتاماً والشمس نورا في كل الأيام على السواء والعلماء يتفاوتون في العلم تفاوتاً كثيراً فتشبيهم بالقمر أنسب لحالهم - وأما تشبيه العلماء بالنجوم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم» فمن وجه آخر وله حكمة أخرى فإن النجوم يقتدى بها في ظلمات البر والبحر وتكون رجوماً للشياطين والعلماء كذلك يقتدى بهم في ظلمات الجهل والكفر وترجم بهم الشياطين الذين يوجون إلى أوليائهم زخرف القول غرورا.